الفصل السادس

وسائل التربية

[١] التربية بالقدوة

قال الأستاذ/ محمد قطب: «القدوة في التربية هي أفعل الوسائل جميعًا، وأقربها للنجاح.

من السهل تأليف «كتاب في التربية» من السهل تخيل منهج، وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول، ولكن هذا المنهج يظل حبرًا على ورق. يظل معلقًا في الفضاء ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض.. ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة يتحول إلى حركة، يتحول إلى تاريخ».

ولقد علم الله - سُبْحَانَهُ - وهو يضع ذلك المنهج العلوي المعجز أنه لابد من ذلك للبشر، لابد من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوله إلى حقيقة، لكي يعرف الناس أنه حق ثم يتبعوه.

لابد من قدوة.

لذلك بعث الله محمدًا ﷺ ليكون قدوة للناس: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ووضع في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي، الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ.

سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[١].

(١) سبق تخريجه.

إجابة دقيقة معجيبة مختصرة شاملة.. كان خلقه القرآن! كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائق وتوجيهاته[١].

قال الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي: «ينتقل تأثير القدوة إلى المقتدي على أشكال أهمها:

١- **التأثير العفوي غير المقصود:** وهنا يقوم تأثير القدوة على مدى اتصافه بصفات تدفع الآخرين إلى تقليده. كتفوقه بالعلم أو بالرئاسة، أو الإخلاص أو.. وفي هذه الحال يكون تأثير القدوة عفويًا غير مقصود، وهذا يعني أن على كل من يرجو أن يكون قدوة أن يراقب سلوكه، ويعلم أنه مسئول أمام الله في كل ما يتبعه الناس، أو يقلده المعجبون، وكلما ازداد حذرًا وإخلاصًا ازداد الإعجاب به، فتزداد فائدته وأثره الطيب في النفوس.

٢- **التأثير المقصود:** على أن تأثير القدوة قد يكون مقصودًا.

فيقرأ العلم قراءة نموذجية ليقلده الطلاب ويجود الإمام صلاته ليعلم الناس الصلاة الكاملة، ويتقدم القائد أمام الصفوف في الجهاد ليبث الشجاعة والتضحية والإقدام في نفوس الجند وهكذا.

وقد تعلم الصحابة رضي الله عنهم كثيرًا من أمور دينهم بطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدوا به فكان يقول لهم: «صلوا كما رأيتموني أُصلي»[٢]، رواه البخاري، وكان يأمرهم في الحج أن يقتدوا به قائلًا: «خذوا عني مناسككم»[٣] ثم كان الصحابي يقول للتابعين: ألا أصلي لكم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) «التربية الإسلامية» (١/ ١٨٠/ ١٨١).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٣١-١٣٢) «الأذان».

(٣) رواه مسلم [١٢٩٧] «الحج» بلفظ: «لتأخذوا عني مناسككم لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»، وأحمد (٣/ ٣٠١).

وصلى ﷺ على المنبر، وفي رواية: أنه ذو ثلاث درجات فقام عليه، فكبر وكبر الناس وراءه وهو على المنبر، ثم ركع وهو عليه ثم رفع فرجع القهقري حتى سجد في أصل المنبر ثم عاد فصنع فيها كما صنع في الركعة الأولى حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس إني صنعت هذا لتتأسوا بي، ولتعلموا صلاتي»(١).

وروى البخاري ومسلم أنه كان ﷺ يسمعهم الآية أحيانًا في صلاة الظهر على أنها سرية، وكانوا يسمعون منه النعمة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ كما روى ابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٦٧/ ٢) والضياء المقدسي في «المختارة» بسند صحيح.

وهكذا علَّمنا رسول الله ﷺ رائد التربية الإسلامية أن يقصد المربي إلى تعليم طلابه بأفعاله وأن يلفت نظرهم إلى الاقتداء به. لأنه إنما يقتدي برسول الله ﷺ، وأن يحسن صلاته وعبادته وسلوكه بهذا القصد، فيكسب ثواب من سن سُنة حسنة إلى يوم القيامة(٢).

وهكذا يظهر بجلاء أن التربية بالقدوة من أنجح وأنفع وسائل التربية، فليس أقوى في دفع الولد أو التلميذ إلى الحرص على صلاة الجماعة من رؤيته والده أو شيخه وهو يعظم صلاة الجماعة، فيتهيأ لها قبل الأذان، ويدخل المسجد، ويحرص على تكبيرة الإحرام، والوقوف في الصف الأول وكذا يدفعه إلى الصدق ما يرى من صدق والده وشيخه ونفورهما عن الكذب، أما من يفتح عينيه على كذب والده، ومن يقتدي به، فمهما لقنه من آيات وأحاديث في فضل الصدق فإن هذا التلقين لا يفيده كثيرًا، لأن من يلقنه من أبعد الناس عنه، وأنفر الناس منه، لذا كان على الوالد والمربي أن يتكلف الاستقامة

(١) رواه البخاري (٢/ ٤٦١) «الجمعة»، ومسلم [٥٤٤] «المساجد ومواضع الصلاة».

(٢) بتصرف من «أصول التربية الإسلامية وأساليبها» [٢٣٤-٢٣٥].

والصدق والأمانة والورع والديانة، لا بقصد الرياء والسمعة، وإنما بقصد تعليم من يقتدي به وينظر إليه، فإذا نصحه بنصيحة كان أحرص الناس على العمل بها، وإذا نفر من خصلة سيئة كان أبعد الناس عنها، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ حكاية عن شُعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ [هود: ٨٨]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في الناس، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(١).

يقول الأستاذ عبد الله ناصح علوان ما ملخصه: «وما أعظم موقف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين كان يجمع أهل بيته ليقول لهم: «أما بعد: فإني سأدعو الناس إلى كذا وكذا، وأنهاهم عن كذا وكذا، وإني أقسم بالله العظيم لا أجد واحدًا منكم أنه فعل ما نهيت الناس عنه أو ترك ما أمرت الناس به إلا نكلت به نكالًا شديدًا». ثم يخرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويدعو الناس إلى الخير، فلم يتأخر أحدٌ عن السمع والطاعة لإعطائهم القدوة بفعله قبل إعطائهم إياه بقوله.

فليعلم الآباء والأمهات والمربون جميعًا أن التربية بالقدوة الصالحة هي العماد في تقويم اعوجاج الولد، بل هي الأساس في ترقيته نحو المكرمات والفضائل والآداب الاجتماعية النبيلة.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٢٩)، «بدء الخلق» (١٣/ ٤٨) «الفتن»، ومسلم (١٨/ ١١٨) «الزهد»، وقوله: «**فتندلق أقتابه**» وهي: الأمعاء، **واندلاقها**: خروجها بسرعة.

وبدون هذه القدوة لا ينفع مع أولادكم تأديب، ولا تؤثر بهم موعظة، فاتقوا الله - أيها المربون - بأولادكم، وكونوا معهم على مستوى المسئولية لتروا أفلاذ الأكباد شموس إصلاح، وأقمار هداية، يستضيء أبناء المجتمع بنورهم، ويتأسون بمحاسن أخلاقهم، ويرتشفون من معين آدابهم، ويصدق عليهم قوله تبارك وتعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[١].

يقول الأستاذ/ عدنان حسن باحارث: «وقد تنبه السلف الصالح - رضوان الله عليهم - إلى هذا الأمر وأهميته، فهذا عمرو بن عنبه ينبه معلم ولده لهذا الأمر فيقول: ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت. فالأطفال لا يدركون المعاني المجردة بسهولة، ولا يقتنعون بها بمجرد سماعها من المربي بل لابد من المثال الواقعي المشاهد.

وبهذا يظهر أنه لا مجال للتربية الإسلامية الصحيحة بدون القدوة الصالحة، التي تمتثل الأوامر وتستجيب لها وتنزجر عن النواهي وتمتنع عنها»[٢].

ويقول الأستاذ/ عبد الله ناصح علوان: «ومن هذه القدوة الصالحة التي تجسدت في صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان انتشر الإسلام في كثير من الممالك النائية والبلاد الواسعة البعيدة في شرق الدنيا وغربها، والتاريخ سطر بملء الافتخار والإعجاب، أن الإسلام وصل إلى جنوب الهند وسيلان وجزر أكديف ومالاديف في المحيط الهندي، وإلى التيبت وإلى سواحل الصين، وإلى الفلبين وجزر أندونيسيا، وشبه جزيرة الملايو، ووصل إلى أواسط إفريقيا في السِّنغال ونيجيريا والصومال وتنزانيا ومدغشقر وزنجبار وغيرها من البلاد، وصل الإسلام إلى كل هذه الأمم بواسطة تجار

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (٢/ ٦٦٤).

(٢) «مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة» [٦٨] ط. دار المجتمع للنشر والتوزيع.

مسلمين، ودُعاة صادقين، أعطوا الصورة الصادقة عن الإسلام في سلوكهم، وأمانتهم، وصدقهم، ووفائهم.. ثم أعقب ذلك الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فدخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، وآمنوا بالدين الجديد عن اقتناع وإيمان ورغبة، ولولا أن يتميز هؤلاء التجار الدُّعاة بأخلاقهم ويعطوا القدوة بين أولئك الأقوام بصدقهم وأمانتهم ويعرفوا لدى الغرباء بلطفهم وحسن معاملتهم لما اعتنق الملايين من البشر هذا الإسلام، ولما دخلوا في هديه ورحمته، ونخلص مما تقدم إلى أن التميز الخلقي المتمثل بالقدوة الصالحة هو من أكبر العوامل في التأثير على القلوب والنفوس، ومن أعظم الأسباب في نشر الإسلام في البلاد البعيدة، والأصقاع المعمورة، وفي هداية البشرية إلى سبيل الإيمان وطريق الإسلام، فما أجدر الجيل الإسلامي اليوم برجاله ونسائه وشيبه وشبانه وكباره وصغاره أن يفهموا هذه الحقيقة، وأن يعطوا لغيرهم القدوة الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والسمعة الحسنة، والمعاملة الطيبة، والصفات الإسلامية النبيلة ليكونوا دائمًا في العالمين أقمار هِداية، وشموس إصلاح، ودُعاة خير وحق، وأسباب نشر وامتداد لرسالة الإسلام الخالدة»[(١)].

وقال في تربية الأولاد: «إذن لابد من قدوة صالحة لنجاح التربية ونشر الفكرة.

ولابد من مثل أعلى ترنو إليه الأعين، وتنجذب لجماله النفوس.

ولابد من أخلاق فاضلة، يستمد المجتمع منها الخير، وتترك في الجيل أفضل الأثر، ومن هنا كان حرص النبي ﷺ على أن يظهر المربي أمام من يقوم على تربيته، بمظهر القدوة الصالحة في كل شيء حتى يشب الولد منذ نشأته على الخير، ويتخلق منذ نعومة أظفاره على الصفات الفاضلة النبيلة[(٢)].

---

(١) «حتى يعلم الشباب» [١١٩] بتصرف.

(٢) «تربية الأولاد في الإسلام» (٢/ ٦٥٣).

[٢] التربية بالموعظة

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «المواعظ سياط تضرب بها القلوب، فتؤثر في القلب كتأثير السياط في البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه فكلما قوى الضرب كانت مدة الألم أكثر، كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعامًا عقب ذلك، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة.

أفضل الصدقة تعليم جاهل، أو إيقاظ غافل، ما وصل المستثقل في نوم الغفلة بأفضل من ضربة بسياط الوعظ ليستيقظ.

إنما التأديب بالسوط من صحيح البدن، ثابت القلب، قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع وأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب، كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة، ثم جاء يُخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده كانوا لا يعدون الدنيا شيئًا».

قال بعض السلف: «إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله، زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر على الصفا. المواعظ ترياق القلوب، فلا ينبغي أن يسقي الترياق إلا طبيب حاذق معافى، فأما لذيغ الهوى فهو إلى شرب الترياق أحوج من أن يسقيه.

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي بمثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[1]

(١) «لطائف المعارف» [١٣-١٥] باختصار.

يقول الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي: «يعتمد الوعظ من الناحية النفسية والتربوية على أمور أهمها:

١- إيقاظ عواطف ربانية كانت قد ربيت في نفس الناشئين بطريق الحوار، أو العمل والعبادة والممارسة أو غير ذلك، كعاطفة الخضوع لله، والخوف من عذابه، أو الرغبة في جنته، وكذلك يربي الوعظ هذه العواطف، وينميها وقد ينشئها من جديد.

٢- الاعتماد على التفكير الرباني السليم الذي كان الموعوظ قد رُبِّيَ عليه، وهو التصور السليم للحياة الدنيا والآخرة، ودور الإنسان أو وظيفته في هذا الكون، ونعم الله، وأنه خلق الكون والموت والحياة.

٣- الاعتماد على الجماعة المؤمنة، فالمجتمع الصالح يُوجِد جوًّا يكون الوعظ فيه أشد تأثيرًا، وأبلغ في النفوس، لذلك جاءت معظم المواعظ القرآنية والنبوية بصيغة الجماعة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

وكالحديث: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا»(١).

٤- ومن أهم آثار أسلوب الموعظة تزكية النفس وتطهيرها، وهو من الأهداف الكبرى للتربية الإسلامية، وبتحقيقه يسمو المجتمع، ويبتعد عن المنكرات وعن الفحشاء، فلا يبغى أحدٌ على أحد، ويأتمر الجميع بأمر الله بالمعروف والعدل والصلاح والبر والإحسان، وقد جُمعت هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠](٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «أصول التربية الإسلامية» [٢٥٥-٢٥٦] باختصار.

وقد اشتمل القرآن الكريم على جمل مستكثرة من المواعظ العالية الغالية.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٦-٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

ومن ذلك قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا

تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

والقرآن كله مواعظ للمتقين كما قال تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ولقد كان وعظ النبي ﷺ على أرقى مستوى وأعلى درجة، فكان يأسر بوعظه قلوب السامعين، فإما منا بعد وإما فداء.

وغاية الواعظ أن يصل بمن وعظه إلى الخشية الحقيقية، التي تجتمع في وجل القلب، ودمع العين، وأن يتذكروا أمور الآخرة فكأنهم يرونها رأي العين، وهكذا كان وعظ النبي ﷺ كما في حديث العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا»[1] الحديث.

وكذا في قصة حنظلة عندما قارن بين حال قلبه في مجلس وعظ رسول الله ﷺ، وعندما يفارق هذا المجلس إلى مجالسة الزوجات والأولاد فقال: نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا، فقال رسول ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات»[2].

وقد كان لوعظه ﷺ سمات: فمن ذلك أنه ﷺ لم يكن يكثر عليهم فيملوا بل يجعلهم دائمًا متشوقين إلى وعظه ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم [٢٧٥٠] «التوبة»، والترمذي [٢٥١٤] «صفة القيامة»، وأحمد (٢/ ٥٣٠٥).

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة بين الأيام مخافة السأم علينا أو قال: السآمة علينا[١].

ومن فقه الرجل تقصير الخطبة، وإطالة الصلاة.

من هديه ﷺ في الوعظ أنه كان يؤثر في الصحابة رضي الله عنهم بقوة يقينه، وتأثره وكان يرفع صوته ويحرك يديه، كأنه منذر جيش.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآيات يومًا على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر: يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم، فرج برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرنَّ به. أساقط هو برسول الله ﷺ ؟[٢].

يقول الدكتور عبد الله ناصح علوان: ولا يتصف الواعظ الداعية بهذا التأثير إلا أن يكون مخلص النية، رقيق القلب، خاشع النفس، طاهر السريرة مشرق الروح.

وفرق كبير بين داعيه يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام، ليسبي به قلوب الرجال، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام، يتكلم بنبضات قلبه ولواعج حزنه وأساه، لما آل إليه حال المسلمين، فلا شك أن تأثير الثاني أبلغ والاستجابة إليه أقوى، والاتعاظ بكلامه أعظم.

قال عمر بن ذر لأبيه: يا أبت ما لك إذا تكلمت أبكيت الناس، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم؟ فقال: يا بني ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة[٣].

(١) رواه البخاري (١/ ٦٢) «العلم»، وأحمد (١/ ٣٣٧).

(٢) رواه أحمد رقم [٥٤١٤ شاكر] وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) باختصار من «تربية الأولاد» (٢/ ٧١٥).

ومن هديه ﷺ في الوعظ أنه كان يستعين بضرب الأمثال كما قال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تشم منه رائحة طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تشم منه رائحة خبيثة»(١).

ومن هديه ﷺ في المواعظ أنه كان يستعين أحيانًا بالرسوم الإيضاحية.

روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا مربعًا، وخط خطًا خارجًا منه، وخط خطوطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به، وهذا الذي خارج - أي: عن الخط - أمله، وهذه الخطوط الصغار والأعراض هي الحوادث والنوائب المفاجئة، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه كلها أصابه الهرم»(٢).

ومن هديه ﷺ: أنه كان يعلمهم بالدرس العملي، كما في «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ توضأ أمام جمع من الناس ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غُفر له ما تقدم من ذنبه»(٣).

وصلى مرة ﷺ بالناس إمامًا وهو على المنبر ليروا صلاته كلهم، وليتعلموا من أفعاله ومشاهداته، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٣٩) «الرقاق».

(٣) رواه البخاري (١/ ٣١١) «الوضوء».

(٤) تقدم تخريجه.

ومن هديه ﷺ أنه كان إذا أراد أن ينهى عن شيء فربما أخذه بيده وبين حرمته ليكون أوقع في نفوس أصحابه:

عن علي رضي الله عنه قال: «أخذ رسول الله ﷺ حريرًا بشماله وذهبًا بيمينه، ثم رفع بهما يده فقال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم»[(١)].

ومن هديه ﷺ في الوعظ استعمال التكرار المفيد للترغيب أو الترهيب.

يقول الأستاذ عثمان قدري مكانسي: «وبهذا الأسلوب الواضح المستأني، وبهذا التكرار المفيد يستوعب الصحابة الحديث فيحفظونه، وتثبت ألفاظه ومعانيه في العقل، وتنغرس الأفكار وظلالها، والألفاظ وإيحاءاتها في النفوس، ويتمثلون حديث رسول الله ﷺ عملًا وتطبيقًا في مجال حياتهم، ثم تصل إلينا نقية لا شائبة فيها، حية بحيوية حامليها.

ومن الأحاديث التي ترى فيها صدق ما ذكرته سابقًا: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه».

قالوا: يا رسول الله من؟

قال: من أدرك والديه عنده الكبر - أو أحدهما - فدخل النار[(٢)].

أية قشعريرة أخذتني وأنا أقرأ هذا الحديث، فأفاجأ بقوله ﷺ: «رغم أنفه» تتكرر ثلاث مرات وأنا بعيد عن زمان الحديث ألفًا وأربعمائة وست عشرة سنة فمادت بي الأرض[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود [٤٠٣٩عون] «اللباس»، والنسائي (٨/ ١٦٠) «الزينة»، وابن ماجه [٣٥٩٥] «اللباس» وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم [٢٥٥١] «الأدب».

(٣) «التربية النبوية» [١٣٠-١٣١] باختصار.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وقول الزور، وكان متكئًا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»(١).

ومن ذلك الترغيب ببيان عظم الثواب، والترهيب بالتخويف من شدة العقوبة.

فمن الأول قوله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله»(٢).

ومن الثاني قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»(٣). أي: نمام.

ومن ذلك استعمال القسم لتأكيد ما يريد بيانه: كما قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلًا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم»(٤).

وكذا قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين(٥)، وهو البكاء الذي ينتشر من الأنف بغنّةٍ.

ومن ذلك التحديد بالعدد حتى يسهل على أصحابه الحفظ وعدم تفلت شيء منهم كما قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٦١) «الشهادات»، ومسلم (٢/ ٨١-٨٢) «الإيمان».

(٢) رواه مسلم [٦٥٦] «المساجد»، ومالك في «الموطأ» (١/ ١٣٢)، والترمذي [٢٢١] «الصلاة».

(٣) رواه البخاري (١٠/ ٧٤٢) «الأدب»، ومسلم (٢/ ١١٢) «الإيمان».

(٤) رواه البخاري (٢/ ١٤٨) «الآذان»، ومسلم [٦٥١] «المساجد»، ومالك في «الموطأ» (١/ ١٢٩-١٣٠).

(٥) رواه البخاري (١١/ ٣١٩) «الرقاق»، والترمذي (٩/ ١٤٩) «الزهد».

إليهم ولهم عذاب أليم» فقالوا: مَنْ هم يا رسول الله؟ فقال: «شيخٌ زان، وملكٌ كذاب، وعائلٌ مستكبر»(١).

ومن ذلك قوله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمَساجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِق يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٢).

ومن ذلك الترقي من المهم إلى الأهم فإذا وجد العبد إنسانًا تاركًا للصلاة، ومُسبل الإزار، أو يتختم بالذهب والثلاثة من المحرمات، إلا أن ترك الصلاة أخطر الثلاثة، وقد اختلف العلماء في تكفير تارك الصلاة فعلى الداعي أن ينصح بالمداومَة على الصلاة أولًا، ثُمَّ إذا كان هناك استجابة يرشد إلى ترك بقية المحرمات، لما أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوَحِّدُوا الله تَعَالى، فَإِذَا عَرَفُوا الله فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَام أَمْوَالِ النَّاسِ»(٣).

---

(١) رواه مسلم [١٠٧] «الإيمان»، والنسائي (٦/ ٨٦) «الزكاة».

(٢) رواه مسلم (٧/ ١٤٣-١٤٥) «الزكاة».

(٣) رواه البخاري (٣/ ٤١٨) «الزكاة»، ومسلم (١/ ١٩٦-١٩٧) «الإيمان».

ومن هديه ﷺ أنه كان يخاطب الناس على قدر عقولهم:

وقد قيل: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم.

وفي «الأثر»: «حدثوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي: «دعوه، وأريقوا على بوله سجلًا من ماء - أو ذنوبًا من ماء - فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[1].

(١) رواه أبو داود [٣٧٦عون] «الطهارة»، والترمذي [١٤٧] «الطهارة»، وأصله في البخاري (١٠/ ٤٥٢) «الأدب»، والنسائي (٣/ ١٤) «السهو».

[٣] التربية بالقصة الهادفة

التربية بالقصة المشتملة على العبرة والعِظة من أنجح المواعظ، لأن النفس بطبيعتها تنجذب إلى القصة، وتأخذ القصة بمجامع القلوب، فإذا أودعت فيها الحكمة والعبرة كانت الغاية، والقرآن الكريم لا يحكي القصص لمجرد أنه قصص للتسلية وتزجية الأوقات، ولكنه يقص القصص من أجل التربية، وترسيخ المعاني الإيمانية، والأخلاق المرضية[١].

جاء في كتاب «النظام والإسلام» في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله: طال الأمد على أمتنا فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة، يا ليت شعري ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها، وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين، والقصص في كلِّ أُمةٍ عليها مدار ارتقائها، سواء كانت وضعية أم حقيقية، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد.

جاء القرآن بقصص الأنبياء وهي - ولا جرم - أعلى منارًا وأشرف مزيةً، كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب، واختيار المقامات المناسبة لما سِيقت إليه، والقدوة الحسنة للكمل المخلصين من الأنبياء، ومن والاهم وتحققها في أنفسها لوقوع مواردها، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان لاسيما لمن يقتدي بهم، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص، ونقصت في سواها، أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كأمس الدابر، وما لنا ولها إذن تالله إن هذا لهو البوار، ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها، وأنها عبرةٌ لمن اعتبر، وتذكرةٌ لمن تفكر، وتبصرةً لمن ازدجر.

وبالإجمال: فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها، والعبر المبصرة للمسلمين: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]، ولسنا ممن يتبجح بالقول

---

(١) بتصرف من «تيسير المنان في قصص القرآن» للمصنف (٣/ ٤) ط. ابن الجوزي.

بلا بيان فلا نعتمد إلا على البرهان، تأمل هذه القصص تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح، ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها، ولا معول عليها، فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد، وعلم، ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرةً وتذكرةً تلذُ العقلاء[1].

قال الأستاذ/ عبد الرحمن النحلاوي: «لكل قصة قرآنية أو نبوية كما بينا هدف تربوي رباني سِيقت من أجله والعبرة بالقصة إنما يتوصل إليها صاحب الفكر الواعي، والذي لا يطغى هواه على عقله وفِطرته، بل يستنبط من القصة المغزى الحق، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]».

قال العلامة محمد رشيد رضا: «ووجه الاعتبار بهذه القصة - أي: قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ -أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد وضعه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن بيع بَيْعَ العبيد بالثمن الخسيس، والتمكن له في الأرض بعد ذلك الإسار والحبس الطويل، وإعزازه على من بغاه بالسوء من أخوته وجمع شمله بهم وبأبويه على ما أحب بعد المدة الطويلة، والمجيء بهم من الشقة النائية، إن الذي قدر على ذلك كله أيها الناس لقادر على إعزاز محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإعلاء كلمته، وإظهار دينه، فيخرجه من بين أظهركم ثم يظهره عليهم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال، والأتباع والأصحاب، وإن مرت به الشدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والحواديت.

وإنما قال: «لأولي الألباب» وهم أصحاب العقول الراجحة؛ لأن أهل البصيرة والرؤية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها بعد التأمل في صفاتها وحقيقتها، وأما الأغرار الغافلون، والظالمون المعاندون فلا يمرنون

---

(١) نقلًا عن «محاسن التأويل» باختصار (٩/ ٣٠٥-٣٠٦) ط. دار الفكر.

عقولهم على الاستقلال في النظر والاعتبار بما جرى على الأفراد والأمم، فلا يفيدهم النصح والتذكر، ولا سوء العاقبة والمصير»[١].

ويقول الأستاذ/ عثمان قدري مكانسي: «إن للقصة تأثيرًا كبيرًا في نفس متلقيها، لما فيها من تدرج في سرد الأخبار، وتشويق في العرض، وطرح للأفكار، ممزوجة بعاطفة إنسانية، وهي تعتمد على الحوار والنِّقاش الداخلي أحيانًا، والخارجي أحيانًا أخرى، وتصدر مُقترنة بالزمان والمكان، اللذين يغفلن الأحداث بإطار يمنع الذهن من التشتت وراء الأحداث، وتتدرج من موقف إلى آخر، تجذب السامع إلى التفاعل والمتابعة بأحاسيسه وأفكاره ومشاعره، ويندمج فيما يسمع، فتصل به إلى نقطة التأزم، ثم تنحل شيئًا فشيئًا، وتكون نقطة التنوير في الأحداث، الضوء الذي ينقذ الموقف القصصي، وينقله إلى حالة الهدوء والانتظام، أو اتخاذ الموقف الإنساني نتيجة للتفاعل الفكري والنفسي مع الأحداث.

والرسول ﷺ استخدم الأسلوب القصصي، لأنه رآه من أبلغ الطرق المؤدية إلى توثيق الفكرة، وإصابة الهدف»[٢].

وإذا كانت النفوس البشرية تميل بطبيعتها إلى القصة وأكثر الناس يضيعون أعمارهم في مشاهدة الأفلام الهابطة، والتمثيليات الساقطة، من أجل التسلية، مع أن فيها ضياع الأخلاق، وذِهاب الأديان، وقتل حياء النساء، وذِهاب غيرة الرجال، فإنها لا تخلو من رؤية متبرجة شديدة التبرج والتهتك، أو اختلاط ماجن بين الرجال والنساء، أو شارب خمر، أو عازف على آلات المعازف واللهو، ثم هي ليست قصصًا من بحر الحقيقة والواقع، ولكنها من نسج الخيال، ومن وضع الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ولا يفوت هؤلاء الكتاب الذين يغلب عليهم التفرنج والأفكار الإباحية، أن يجرءوا الناس على المعاصي والشهوات.

---

(١) نقلًا عن «أصول التربية الإسلامية وأساليبها» [٢٤٥-٢٤٦].

(٢) «التربية النبوية» [١٤-١٥].

وأن يسكبوا في قلوبهم أنواع الشبهات، ولا تخلو من الاستهزاء بالدين، والسخرية من أولياء الله الصالحين.

وماذا ينتظر من أناس تركوا دينهم وإسلامهم خلف ظهورهم، ووجَّهوا وجوههم قبل الغرب الكافر، يَهدِّمون ما هدموا من فضيلة، ويحيون ما أحيوا من فاحشة ورذيلة، والله من ورائهم محيط[١].

ولما كانت القصة لها أثرها التربوي، ولها جذبها للقلوب والأسماع اشتمل القرآن على قصص كثيرة بل ما يقرب من ربع إلى ثلث القرآن في القصص، ولما كان من أهم أهداف القصص القرآني الارتقاء بمستوى الأمة الإيماني، والفكري، والأخلاقي، وكذا تسلية المؤمنين وتثبيتهم على الحق المبين، كان من سمات القرآن المكي كثرة القصص، لحاجة المسلمين في بداية الدعوة إلى تأصيل المعاني الإيمانية وكذا حاجتهم إلى التسلية لمواجهة إيذاء الجاهلية واستهزائها، ولأجل العِبرة والعِظة تكرر القصص القرآني، حتى ذُكِرت قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أربعة وعشرين موضعًا.

قال الأستاذ/ مناع القطان: «يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، وتُعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شَابه ذلك.

ومن حكمة هذا:

١- بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة تَرِد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتُصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معانٍ لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

---

(١) من مقدمة المصنف لكتابه «تيسير المنان في قصص القرآن» الجزء الثالث ص[٥-٦] ط. دار ابن الجوزي.

٢- قوة الإعجاز فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

٣- الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد، وإمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تُمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

٤- اختلاف الغاية التي سَاق من أجلها القصة: فتذكر بعض معانيها الوافية للغرض في مقام، وتبرز معاني أخرى في سائر المقامات، حسب اختلاف مقتضيات الأحوال»[1].

أما القصص النبوي فالهدف منه كذلك ترسيخ المعاني الإيمانية، وغرس الفضائل في نفوس المسلمين، وكذا تسليتهم وتثبيتهم في طريق الإيمان، فمن القصص النبوي الذي يرسخ المعاني الإيمانية قصة الرجل الذي سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء. فقال: كفى بالله شهيدًا. فقال: فأتني بالكفيل. فقال: كفى بالله وكيلًا. فقال: صدقت. فدفعها إليه إلى أَجلٍ مُسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبًا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار... وصحيفة إلى صاحبه ثم زج موضعها - أي: سده - ثم أتى بها البحر.

فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضي بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولِجت فيه ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبًا فد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها

(١) «مباحث في علوم القرآن» [٣٠٧-٣٠٨].

لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتِيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه.

قال: هل كنت بعثت إليّ بشيءٍ.

قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئتك فيه.

فقال: فإن الله أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بألف الدينار راشدًا[1].

ففي القصة حث على التوكل على الله - عَزَّ وَجَلَّ - والوفاء بالوعد، وتصديق المسلم، وحسن الظن به، وكذا حسن الظن بالله - عَزَّ وَجَلَّ - والرضا به ربًا وكفيلًا، وشهيدًا.

ومن القصص النبوي الهادف قصة الأبرص والأقرع والأعمى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ ثَلَاثَةً من بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، أراد الله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، أَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، ويَذْهَب عَنِّي الَّذِي قد قَذِرَنِي النَّاسُ. فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذره وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا.

فَقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ.

فَقَالَ: الْإِبِلُ.

قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ. فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا.

قَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. فَأُعْطَي بَقَرَةً حَامِلًا. فَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا، فَأَتَى الْأَعْمَى. فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٤٢٤) «الزكاة» مختصرًا، وأحمد (٢/ ٣٤٨).

قَالَ: أن يَرُدُّ الله إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ.

قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطَي شَاةً وَالِدًا.

فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الغَنَم.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قد انقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالمَالَ الحسن بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي.

فَقَالَ: الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ.

فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَتقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ الله؟

فَقَالَ: إِنَّمَا ورثت هَذا المَال كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

قَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قد انقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ الْشعر الْحَسَنَ، وَالمَنظر الْحَسَنَ، وَالمَالَ بقرة أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَال: الحقوق كَثِيرة.

فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أقرع يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ الله؟

فَقَالَ: إِنَّمَا ورثت هَذا المَال كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وهيئته، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ انقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لي الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي.

فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ الله بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئت، فَوَالله لَا أَجْهَدُكَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلّه - عَزّ وَجَلّ -.

فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ الله عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»(١).

فكم تغرس هذه القصة النبوية التي حكاها رسول الله ﷺ في النفوس من بيان عاقبة الصدق، وعاقبة الكذب، وكم تبين حال الحريص على الدنيا الذي يبخل بنعم الله - عَزَّ وَجَلَّ - عليه، ويتكبر على عباد الله من الحرمان في الدنيا، والتعرض لسخط الله - عَزَّ وَجَلَّ - وعقوبته، وكذا يتبين حال المؤمن الشاكر لنعم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وكيف أنه ينال رضا الله الذي هو أكبر من جنة الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وكيف أن الصدقة لا تُنقص المال، كما قال النبي ﷺ: «ما نقص مال من صدقةٍ»(٢).

وأن الدنيا دار بلاء وامتحان، وأن الفقر فتنة، والغنى فتنة، فالسعيد من تبصر في حاله، وعلم العبودية المطلوبة منه، فقام بواجبها، فوفق للخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

وبعد فهذه نماذج من القَصص النبوي المبارك، ولا تقتصر التربية بالقصة على القصص القرآني والنبوي، ولكن هناك كذلك من قصص الأمم السابقة، ومن سِير السلف، وكذا من أخبار المُعاصرين ما فيه عِبرة وعِظة، فنسألُ الله التوفيق إلى ما يحب ويرضى.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٥٧٨-٥٧٩) «الأنبياء»، ومسلم [٢٩٦٤] «الزهد».

(٢) رواه الترمذي [٢٣٢٥] «الزهد»، وقال: حسن صحيح وصححه الألباني.

[٤] التربية بضرب الأمثال

يقول الأستاذ/ عبد الرحمن النحلاوي ما ملخصه: «لم تكن الأمثال القرآنية والنبوية مجرد عمل فني يقصد من ورائهِ الرَّونق البلاغي فحسب، بل أن لها غايات نفسية تربوية حققتها نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، وتأثير الأداء، ومن أهم هذه الأهداف التربوية:

(أ) تقرب المعنى إلى الأفهام، فقد ألف الناس تشبيه الأمور المجردة بالأشياء الحسية، ليستطيعوا فهم تلك الأمور المعنوية، أو الغيبية.

ومن الأمثال النبوية المعروضة بأسلوب الحوار الخطابي أيضًا الحديث التالي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من درنه، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»(١).

أما الأمثال القرآنية فقد بلغت ذروة الإعجاز والبلاغة من حيث استكمال الوضوح، وأداء المعنى، وتقريبه للأفهام، نذكر منها على سبيل المثال المعنى الذي ضربه الله مثلًا للحق والباطل.

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فالباطل يضمحل وينمحق كالزبد الذي يحتمله السيل، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، كما يعلو الزبد، والحق ثابت باق يمكن في القلب فينتفع به المؤمن، فيثمر عملًا صالحًا كما يمكن الماء، وأسباب الإنبات في الأرض فيثمر عشبًا وزرعًا ونخيلًا وأعنابًا.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٤-١٥) «مواقيت الصلاة»، ومسلم رقم [٦٦٧] «المساجد»، «مواضع الصلاة».

(ب) إثارة الانفعالات المناسبة للمعنى، وتربية العواطف الربانية: انفعال الاشمئزاز من هؤلاء والشعور بتفاهتهم، وضياع عقولهم، واقرأ معنى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي: كلفوا العمل بما فيها ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

(جـ) تربية العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم: تنطوي معظم الأمثال على قياس تُذكر مقدماته ويُطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة التي لا يصرح القرآن بها في كثير من الأحيان، بل يشير إليها ويترك للعقل معرفتها.

فعندما ضرب الله مثلًا للحق والباطل وصف المشبه به «الماء»، والسيل والزبد وما ينفع الناس فيمكث في الأرض، وما يذهب جفاء ثم اكتفى بإشارة سريعة إلى النتيجة ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ﴾ [الرعد: ١٧]، وترك للعقل أن يكتشف أن الحق يبقى، وأن الباطل يذهب جفاء، كما يذهب الزبد بعد انتهاء السيل، ويشعر الإنسان بلذة الظفر بالوصول إلى اكتشاف «اللغز» الذي أشارت إليه الآية، وقد يشعر بلذة «المفارقة» والسخرية بالباطل كما في المثل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا ﴾ [الحج: ٧٣]

(د) الأمثال القرآنية والنبوية دوافع تحرك العواطف والوجدان، فيحرك الوجدان الإرادة ويدفعها إلى عمل الخيرات، واجتناب المنكرات، وبهذا تساهم الأمثال في تربية الإنسان على السلوك الخير وتهذيب نزعاته الشريرة فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات، وتسير الأمة الإسلامية سيرتها نحو حضارة مُثلى، يتحقق للإنسانية الرخاء والتحرر من كل خرافة، أو ظلم، ويجب على المربي العمل على تحقيق هذا الجانب من تربية السلوك والإرادة الطيبة والنزوع إلى الخير، وذلك باستحضار الأمثال القرآنية في المواقف الحياتية والنشاطية المدرسية المناسبة، والتعقيب عليها بذكر نتائجها السلوكية والاجتماعية الطيبة بأسلوب يقوي إرادة الخير عند الطلاب، ويحقق عزمهم على توجيه سلوكهم بما تقتضيه

أمثال القرآن وتعاليمه، فالأمثال القرآنية والنبوية سلاح (بلاغي، عاطفي، عقلي) ماض، بليغ الأثر عظيم النتائج، جم الفائدة[١].

ويقول الأستاذ/ عثمان قدري مكانسي: «كان رسول الله ﷺ يستعين على توضيح المواعظ بضرب المثل مما يشاهده الناس بأم أعينهم، ويقع تحت حواسهم وفي متناول أيديهم، ليكون وقع الموعظة في النفس أشد، وفي الذهن أرسخ، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[٢]، فالناس كما قسمهم الرسول ﷺ أربعة أنواع، والسامعون يرهفون السمع وحاسة التصوير يريدون أن يتعرفوا هذه الأقسام الأربعة، ليوازنوا بينها، ويحددوا في أي صنف يكونون.. وهذه الموازنة تجعلهم يرغبون بالتعرف على سمات كل طائفة»[٣].

فضرب الأمثال من وسائل التربية التي اعتبرها الشرع الحنيف، وأكثر القرآن من ذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقال جل ذكره: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

قال الحكيم الترمذي: «ثم اعلم أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليهم الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء فضرب لهم

---

(١) «أصول التربية الإسلامية وأساليبها» [٢٢٣-٢٢٨] باختصار.

(٢) رواه البخاري (٨/ ٦٨٢،٢٢٨) «فضائل القرآن»، ومسلم رقم [٧٩٧] «صلاة المسافرين وقصرها».

(٣) «التربية النبوية» [٣١-٣٢].

مثلًا من عند أنفسهم لا من عند نفسه، ليدركوا ما غاب عنهم، فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤]، فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهتدي النفوس بما أدركت عيانًا

فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه عالمًا لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»[1].

ثم ساق الحكيم الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ جملة مستكثرة من الأمثال في القرآن والسنة وأقوال الحكماء، وهذه باقة طيبة من هذه الأمثال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه: «فضرب مثل المنافقين فقال - جَلَّ ذِكرهُ -: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٤-١٨].

قال: مثل المنافق الذي تكلم بكلمة الإيمان مرائيًا للناس كان له نوره بمنزلة المستوقد نارًا يمشي في ضوئها ما دامت تتقد ناره، فإذا ترك الإيمان صار في ظلمة، كمن أطفئت ناره فقام لا يهتدي ولا يبصر ذلك.

ثم قال: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي: بإيمانهم الذي تكلموا به، ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ في ضلالةٍ لا يُبصرون الهدى، هذا قول مقاتل».

---

(١) «الأمثال من الكتاب والسنة» لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي بتحقيق محمد علي البجاوي [١-٢] ط. مكتبة دار التراث.

وقال قتادة: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمنافق الذي تكلم بكلمة الإيمان ظاهرًا، فناكح ووارث بها وحقن به دمه وماله، فلما كان عند الموت لم يك مصدقًا بها سُلبت عنه فتُرك في كربٍ وظلمة، فتحير فيها، كما كانت معاملته في الدنيا في حق الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -».

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أضاءت ما حولهم إلى إقبالهم إلى المؤمنين، وذهب بنورهم يعني ذهاب نورهم عند إقبالهم على المشركين، فالمنافق قلبه منحدر لا يستقر فيه شيء، كلما برق فيه نور الحق خرج من الجانب الأخر، فقلبه كنفق اليربوع يدخل من باب ويخرج من باب»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم ذكر مثل المرائي والمشرك كمثلِ صفوانٍ عليه التراب، فأصابه وابل - المطر الشديد -، فلا يبقى من ذلك التراب على ذلك الصفا شيء، كذلك صدقة المشرك والمرائي الذي يَمن ويؤذي الفقير، لا يحصل له شيء من الثواب يوم الجزاء»(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومثل الكافر إذا دعا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، ألا يستجاب دعاء الكافر، كما لا يبلغ الماء الذي بسط كفيه لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرَّعْد: ١٣]، أي: إلا في باطل»(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مثل أعمال الكافر كرمادٍ اشتدت به الرياح في يوم عاصف، فالكفار اتخذوا أهواءهم آلهة من دون الله، وعملوا بأهوائهم فجاءت ريح الأهواء فذرته في النار»(٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وضرب مثلًا آخر لأهل الشرك فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٢٩].

---

(١) السابق [٥-٦].

(٢) السابق [١٣].

(٣) السابق [٢٠-٢١].

(٤) السابق [٢١].

فالموحد أسلم وجهه لله وحده، والمشرك أسلم وجهه لأرباب متفرقين، فكيف حاله في الدنيا في بعث عبوديته لهم، وكيف حاله في الآخرة فهو وأربابه في النار»[١].

قال الحكيم الترمذي: «وما في الأخبار من ضرب الأمثال أكثر من أن يحصى نذكر بعضها، فمنها ما روي عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: مثل القرآن مثل الإبل المعلقة، إن عقلها صاحبها أمسكها عليه، وإن أرسلها من عقلها ذهبت»[٢].

وقال ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كمَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[٣].

ومنها ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلَ المُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقَ شَيْئًا إِلا سَبغت عَلَى جِلدَهُ حَتَى تُواري بَنَانَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ»[٤].

ومنها ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصِّيَام جنة كَجنة أَحَدِكُمْ مِنْ القِتَال»[٥].

---

(١) السابق [٢٩].

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٦٩٦) فضائل القرآن»، ومسلم [٧٨٩] «صلاة المسافرين»، والنسائي (٢/ ١٥٤) «الصلاة».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري (٣/ ٣٥٨) «الزكاة»، ومسلم (٧/ ١٥٠) «الزكاة».

(٥) رواه البخاري (٤/ ١٠٣) «الصوم»، ومسلم (٨/ ٣٢) «الصيام».

ومنها ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمى»[١].

ومنها ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الَّذِي اسْتَرَدَّ مَا وَهَبَ، مثَل الْكَلْبِ يَقِيءُ فَيَأْكُلُ قَيْئَهُ»[٢].

فهذه الأمثال ضربها رسول الله ﷺ ليريهم ما غاب عنهم بما حضر[٣].

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٥٢) «الأدب»، ومسلم [٢٥٨٦] «البر والصلة».

(٢) رواه أبو داود [٣٥٢٣عون] «البيوع»، والنسائي (٦/ ٢٦٥) «الهبة»، وابن ماجه [٢٣٨٥] وصححه الألباني.

(٣) الأمثال من الكتاب والسنة [٤٤].

obeikandl.com

[٥] التربية بدراسة تراجم العلماء والأعلام والأئمة الكرام

لا شك أن في دراسة تراجم العلماء الأفاضل وأصحاب المنن والفواضل فوائد فمن ذلك:

١- تربية شباب الصحوة الإسلامية على ما تربى عليه العلماء الأعلام، حتى ينسج على منوال الكرام، ويتبوأ منازل الخير والإنعام، فيقرأ سيرهم من لم يعاين صورهم، ويشاهد محاسنهم من لم يعاصرهم، فيعرف مناصبهم ومراتبهم، فيجِد في الطلب ليلحق بهم ويتمسك بهديهم.

٢- ومن ذلك أن المسلم تجتمع له خلاصة التجارة وعصارة الأفكار والمواقف، فيأخذ بالحسن ويجد في الطلب، فكأنه يضم عمر غيره إلى عمره:

إذا علم العبد أخبار من مضى ... توهمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر عمره ... إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالمًا ... حليمًا كريمًا فاغتنم أول العمر

٣- ومن ذلك معرفة شرف العلم وحملته، فإذا كان أهل التجارات قد شغلوا أنفسهم بالتجارة، والملوك شغلوا أنفسهم بأمور الملك فإن العلماء قد شغلوا أنفسهم بحراسة دين محمد ﷺ، وإحياء سنته ونشر شريعته.

قناديل دين الله يسعى بحملها ... رجال بهم يحيا حديث محمد
هم حملوا الآثار عن كل عالم ... تقي صدوق فاضل متعبد
محابرهم زهر تضيء كأنها ... قناديل حبر ناسك وسط مسجد
تساق إلى من كان في الفقه عالمًا ... ومن صنف الأحكام من كل مسند

٤- ومن هذه الفوائد أن يزداد حب المسلم للعلماء الأعلام، وقد قال النبي ﷺ: «المرء مع من أحب» فطوبى لمن أحب أهل العلم والشرف الدائم والعز الباقي.

٥- ومن ذلك نشر علمهم، والاستفادة بفقههم، والاعتبار بمواعظهم ونصائحهم.

٦- ومن ذلك أن الرحمات تتنزل عند ذكر الصالحين.

٧- ومن ذلك أن ننزل أنفسنا المنازل اللائقة بها، كما قال بعضهم: «إذا ذكر السلف افتضحنا».

٨- ومن ذلك أننا في أزمنة غابرة متأخرة عز فيها العلماء العاملون فدراسة تراجم العلماء الأعلام والأئمة الكرام، يعوض شيئًا من هذا النقص، ويجبر شيئًا من هذا الفقر.

٩- ومن ذلك أن المسلم قد تتجدد له هِمَّةٌ فيلحق ولو بساقة القوم أو يجد أثرًا من غبارهم.

إذا أعجبتك خصال امرئ ... فكنها تكن مثل ما أعجبك
فليس على الجود والمكرمات ... إذا جئتها حاجب يحجبك[1]

وقد ذكرنا من وسائل التربيةِ التربيةَ بالقدوة، وقد قيل: حياة رجل في ألف رجل، خير من نصح ألف رجل لرجل، ولكن إذا عز في زماننا من يصلح لأن يكون قدوة في العلم والعمل والصفات الجميلة والأخلاق النبيلة فالتماس القدوة من سير السالفين، وأخبار العلماء العاملين لا شك إن لم يقم مقام القدوة الحاضرة المشاهدة، فإنه يؤدي شيئًا من معناه، فدراسة أخبار السلف وسيرهم من الطرق التربوية الناجحة، إذ النفس تتشوق للكمال وتتطلع إليه عند سماع أخبار العلماء الربانيين من عباد الله، كما أنها تثور فيها نوازع الشر، وتتحرك فيها الشهوات عند سماع أخبار أهل الدنيا وأصحاب الشهوات، والنفس

(١) بتصرف من مقدمة المؤلف لكتاب «من أعلام السلف» (١/ ٩-١١) ط. دار الإيمان بالإسكندرية.

بطبيعتها عندها استعداد للخير والشر، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ومن فضل الله - عَزَّ وَجَلَّ - علينا وعلى الناس أن دُوِّنَ تاريخ أمتنا، وتُرْجِمَ لرجاله، وكما أن تاريخ الإسلام حافل زاخر بالأحداث العظيمة والمواقف الشريفة التي تفتخر به الأمم والشعوب فهو كذلك حافل زاخر بالشخصيات الفذة والقمم العالية وأكابر الرجال الذين يمثلون عظمة الإسلام، ويصدقون دعوة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قمم في العلم والعبادة والخشية والثبات والتضحية وغير ذلك من الفضائل الحميدة، والخِصال المجيدة، التي تكون كالمصابيح المضيئة، والرايات المنشورة أمام شباب الصحوة المباركة فهم أُسوة وقُدوة، وطاقة للخير، والحض عليه، والله الموفق.